# في البحث عن إيقاعات جديدة في الشعر العربي

عبد الكريم يحيى عبد الكريم

منذ زمن ليس بالقريب، يتردّد في ذهني سؤال أصبح هاجساً ملازماً، سؤال ينصّ على ما يلي: (أيمكن للجملة العربية أن تعطينا تفعيلة أو تفعيلات لم يطرقها الشعر الغربي، ولم تدخل عروض الخليل بن أحمد، أم أن التفعيلات المعروفة في علم العروض هي كلّ ما يمكن أن توفّره وتسمح به الجملة العربية والتركيب اللغوي العربي؟).

أعترف أنّ لهذه الفكرة من الجاذبية والسّحر ما يدفع بالمرء إلى أبعد الحدود رغبةً في تجسيدها، وقد تشطح به في تهويمات بعيدة عن الواقع. إنها أشبه بالمغامرة في ارتياد المجهول وكشف المناطق الخبيئة، بما لها من جاذبية تأسر النفس.. وبما فيها من خطورة أيضاً.

لقد حاول الدكتور كمال أبو ديب أن يجد بديلاً لعروض الخليل في كتابه القيّم (في البنية الإيقاعية للشعر العربي - بيروت - دار العلم للملايين - ١٩٧٤) وقد توصّل الدكتور أبو ديب إلى أنّه يمكن من الناحية الرياضية البحتة (بغضّ النظر عما يمكن أن يوفّره التركيب اللغوي العربي من إيقاعات) أن تتشكّل لدينا إيقاعات لا نهائية من النواتين اللتين يجعلهما أساساً للإيقاع العربي [فا، علن]. وبرأيي إنّ إعتماده على هاتين النواتين (الذي بسّط إيقاعات الشعر العربي بلا شكّ) قد أوقعه في متاهة الإيقاعات التي يمكن أن تتشكل عنهما.. ولذا لم يكن ممكناً له أن يحدّد آفاقها.

في هذه السطور حاول الإجابة عن السؤال الذي طرحته في البداية، وتجسيد تلك الفكرة التي انبثقت من ذهني، وبدايةً أحبّ أن أنوّه إلى أنّني بعملي هذا، لا أنصّب من نفسي مشرّعاً عروضياً بأيّ حال من الأحوال، وإنما أرغب في استكناه ومعرفة حدود هذه الإمكانية الإيقاعية العربية، ومعرفة ما لم يستخدم من هذه الإمكانية في الشعر العربي. كما أشير إلى أنّ الذي جدّد هذه الفكرة في ذهني هو مقال الأستاذ عدنان بن ذريل المنشور في جريدة (الأسبوع الأدبي) الصادرة في دمشق عن اتّحاد الكتاب العرب - العدد ٢٢ - ٣ تموز ١٩٨٦.

للغاية المذكورة سأقوم بمسح إحصائي لما يمكن أن يتشكّل من تفعيلات (بغضّ النظر مبدئياً عمّا يمكن أن تعطيه الإيقاعية العربية، وبغض النظر عن حدود الإيقاع التي تفرضها الجملة العربية، فقد ينتج لدينا إيقاع لا يمكن للجملة العربية أن تعطيه.. وإذا أعطته فهي تعطيه بصعوبة بالغة). وسأعتبر هنا أن البنية الإيقاعية تتألف من مقطعين:

١ - المقطع المكوّن من (متحرّك وساكن يليه) وسأسمي هذا المقطع بالمقطع المرسل وسأرمز له بالرمز (٥).

٢ - المقطع المكوّن من (متحرك لا يليه ساكن).. وسأسميه بالمقطع المقبوض وسأرمز له بالرمز (/).

وفيما يلي المسح الإحصائي للتفعيلات المتشكّلة:

١ - التفعيلات من مقطعين:

٥ ٥ فَعْلن (متدارك)

/ ٥ فَعَلْ (نصف متفْعلن)

٢ - التفعيلات من ثلاثة مقاطع:

٥ ٥ ٥ (مرّة ونصف من فعْلن)

/ ٥ ٥ فعولن (متقارب)

٥ / ٥ فاعلن (متدارك)

/ / ٥ فعِلن (متدارك)

٣ ـ التفعيلات من أربعة مقاطع :

○ ○ ○ ○ فعْلن مكرّرة (متدارك)

* *

/ ○ ○ ○ مفاعيلن (هزج)
○ / ○ ○ فاعلاتن (رمل)
○ ○ / ○ مستفعلن (رجز)

* *

/ / ○ ○ فعِلاتن (رمل)
/ ○ / ○ متفْعلن (رجز)
○ / / ○ مستعِلن (رجز)

* *

/ / / ○ مُتَعِلن (رجز)

٤ ـ التفعيلات من خمسة مقاطع :

○ ○ ○ ○ ○ تكرار لـ (فعْلن)

* *

/ ○ ○ ○ ○ مفاعيلاتن (تفعيلة جديدة).
○ / ○ ○ ○ فاعلن فعْلن (متدارك)
○ ○ / ○ ○ مستفعلاتن (تفعيلة جديدة مبدئياً)
○ ○ ○ / ○ فعْلن فاعلن (متدارك)

* *

/ ○ / ○ ○ متفعلاتن (تفعيلة جديدة ملحقة بمستفعلاتن)
/ ○ ○ / ○ مفاعيلها[1] (تفعيلة جديدة)
○ / ○ / ○ فاعلاتها[1] (تفعيلة جديدة)
/ / ○ ○ ○ فعِلن فعْلن (متدارك)
○ / / ○ ○ منفعلاتن (ملحقة بمستفعلاتن)
○ ○ / / ○ فعْلن فعِلن (متدارك).

* *

/ / / ○ ○ مُتَعلاتن (ملحقة بمستفعلاتن)
○ / / / ○ فاعلتها (ملحقة بفاعلاتها)
/ ○ / / ○ مفاعلتن (وافر)
/ / ○ / ○ متفاعلن (كامل)

* *

/ / / / ○ تفعيلة معقّدة (لا تسمح بها الجملة العربية إلاّ في النادر).

٥ ـ التّفعيلات من ستة مقاطع :

لن نتّبع هنا نفس الدراسة السابقة لكي لا نقع في التكرار.

/ / ○ / ○ ○ متفاعلاتن (ليست جديدة تماماً... لأنها معروفة في نطاق ضيّق من بحر الكامل)
○ / ○ / ○ ○ فاعلن فعولن[2]

مناقشة المسح الإحصائي :

١ ـ نتج لدينا عشر تفعيلات جديدة مبدئياً وهي : مفاعيلاتن ـ مستفعلاتن ـ مفاعيلها ـ فاعلاتها ـ متفْعلاتن ـ منفعلاتن ـ متَعِلاتن ـ فاعلتها ـ متفاعلاتن ـ فاعلن فعولن.

٢ ـ فيما يتعلق بالتفعيلة (مستفعلاتن) فهي ليست جديدة تماماً... ولكنها ناتجة عمّا يسمّيه الدكتور صفاء خلوصي ببحر (المنسرح الأحذّ) في كتابه (فنّ التقطيع الشعري ـ ص ١٥٢)[3].

وبناءً عليه يمكن إلحاق التفعيلات (منفعلاتن ـ متفْعلاتن ـ متعلاتن) بالتفعيلة (مستفعلاتن).

٣ ـ يمكن إلحاق التفعيلة (فاعلتها) بالتفعيلة (فاعلاتها).

٤ ـ يمكن من الناحية النظرية، باستخدام هذه التفعيلات واستخدام التزاوج فيما بينها أو بينها وبين التفعيلات المعروفة أن نحصل على إيقاعات أو بحور جديدة خارج عروض الخليل.

ولمعرفة أبعاد التفعيلات «الجديدة» المتشكّلة، أستأذن القارىء بإيراد بعض الأمثلة التطبيقية التي شكّلتُها وفق هذه التفعيلات :

أ ـ مفاعيلاتن :

أضعتَ الأرضَ[4]... وكانت عندكْ
وكانت جزركَ.. كانت مدّكْ
فأين القلبُ؟
وأين الماءُ؟ وأين العشبُ؟
أضعتَ الأرضَ ـ أضعتَ الأرضَ.. فمات الحبُّ!

*

يلاحظ على هذا الإيقاع أنّ فيه شيئاً من بحر المضارع، ولكنّه يتخطّاه ويضيف إلى النغمة أفقاً أرحب وأجمل.

**ب ـ مفاعيلها:**

كساهُ الرّمادُ ـ كالوهم ضاع في اللامدىٰ
وذاب النّهارْ
وغار النّداء جرحاً علىٰ ذراع الصّدىٰ
. . وهذا منارْ
يغنّي لعشبة المبتدىٰ
ويأسىٰ لنارْ.

كما نرىٰ، هذا الإيقاع هو أقرب إلى إيقاع «فعولن» منه إلىٰ أيّ إيقاع آخر.

**جـ ـ متفاعلاتن:**

سيطلّ كالسّحر علىٰ رؤايا
ويحلّ بي مثل حمامةٍ أو شجرٍ صديقِ
وسيلبس السّاقطَ من خُطايا
ويُعلّق العشبَ منارةً في حجَر المرايا
فأرىٰ طريقي
في عالم يغرق بالحريقِ.

إيقاع هذه التفعيلة يدخل عباءة الرّجز ويغيب فيها حيناً. . ويخرج منها حيناً آخر.

**د ـ فاعلاتها:**

أيّها الغريبُ الذي تجلّىٰ كطائرِ
أنت حلمنا
أنت إسمنا
أنت أغنياتٌ خبيئةٌ في السّرائرِ
إنتفض بنا
وانتعش بنا
أنت زقزقات البشائرِ

إنّه إيقاع مركب. . يشبه في ذلك البحر البسيط المعروف.

**هـ ـ فاعلن فعولن:**

هل أبىٰ جميلٌ زهرةَ المسّوادِ
أم رأىٰ رمادي؟
وجهه كتابٌ ناصع المدادِ
وجهه شموسٌ عانقت صباحي
عانقت رياحي
في مدىٰ ربيعٍ راعشِ الأقاحي.

*

يلتقي هذا الإيقاع مع إيقاع الرّجز، ولكنه في اعتقادي يضيف إليه إضافة مهمّة.

* * *

وبعد. .

ما النتيجة التي يمكن أن نخرج بها من هذا العمل؟

نلاحظ أن معظم التفعيلات التي اعتبرناها جديدة، يأخذ شيئاً ما، صغيراً كان أم كبيراً، من الإيقاعات المعروفة. . فنسأل:

أيمكن أن تكون هذه الإيقاعات قد خطرت ببال الشاعر العربي القديم وجالت في نفسه الشاعرة؟

وإذا كانت قد جالت في نفسه الشاعرة، فهل طوّر عنها الإيقاعات المعروفة لدينا أم ماذا؟

أسئلة كثيرة تخطر بالبال، وستنبثق أسئلة كثيرة أخرىٰ، ولكنها ستبقى بدون أجوبة.

إنّ وصولنا إلىٰ النتائج السابقة لا يعني أنّنا نزعم أنّ هذه الإيقاعات بالإضافة إلىٰ الإيقاعات المعروفة هي كلّ ما يمكن أن يتشكّل لدينا من الجملة العربية.

ولكن السؤال المطروح الآن هو: هل يمكن لهذه الإيقاعات الجديدة المتشكّلة أن تضيف جديداً إلىٰ الشعر العربي؟

هذا هو السؤال!

**إشارات:**

(١) يلاحظ أننا خرجنا في التسمية عن أحرف التقطيع العشرة (لمعت سيوفنا).

(٢) لم نجد تسمية أفضل من هذه التسمية.

(٣) راجع مقالة عبد الوهاب محمد الطيار في مجلة الطليعة الأدبية ـ آب ١٩٧٩ ـ الصفحة ١٢٥، وفيها أمثلة عن هذا البحر من شعر معروف الرصافي وابن المعتز وصفي الدين وغيرهم.
كما أن للشاعر أدونيس، مقطعاً شعرياً يسير وفق هذا الإيقاع بعنوان (الهزيمة) في ديوانه (أغاني مهيار الدمشقي) ـ ساحر الغبار.

(٤) نعتقد أنّ (مفاعيلاتُ) في الحشو أفضل من (مفاعيلاتن) لأنّها تعطي للإيقاع تأثيراً أكبر وانسجاماً أحسن.